محمد عنانى

حُورِيَّةُ أَطْلَسْ

شعر



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٠١

تصدير

كُتبتْ هذه القصائد فى السنوات الأخيرة من القرن العشرين، وكُتبَ بعضُها فى مطلع القرن الجديد ، أى إنها كُتبتْ جميعًا بعد صدور ديوانى الأول **أصداء الصمت** فى عام ١٩٩٧ ، وهى فى معظمها ذات «تيمة» واحدة تتعلق بالصمت أيضًا ، وإن كان هنا صمتًا متعدد الألوان والأشكال، وقد جمعتُها وعرضتُها على من أثق فى حكمه فنصحنى بترتيبها هذا الترتيب التصاعدى من الغنائية إلى القصصية ، فى أربع مجموعات صغيرة ، كما نصحنى باتخاذ العنوان الحالى للديوان الصغير ، ويعلم الله مدى إشفاقى ووجلى من نشره

على القراء ، فحساب الشاعر لدى النقاد عسير ، ولا أريد أن أُعرَضَ لهذا الحساب فألقى العَنَت ، ولكن إصرار أصدقائى على ألاّ أكتم هذه الشهادة على نفسى دفعنى إلى النشر دفعًا ، كما كان حسن تقبّل ديوانى الأول من وراء الإقدام ، وكنت بين الإقدام والإحجام متردّداً كالمُنْبَتّ ، فرفضت مصير المُنْبَتّ !

محمد عنانى

القاهرة - ٢٠٠١

١ - طالب السراب

من يطلب السرابَ قد يدرى بأنه سرابْ

وأن هذه الأطيافَ ليس تمْخُرُ العُبابْ

وأن ماء السفح قُرب حافّة الأفقْ

لا يمسك الرَّمَقْ

وأن مَهْمَهَ الرِّمالِ قد خَلاَ من الرُّضابْ !



وطالبُ السراب قد يدرى بأنه لن يهزمَ الهَجِيرْ

أو يقهرَ السَّعيرْ

وأنه لن يرتوى من وابلٍ أو طَلّ

من عَلَلٍ بعد نَهَلْ

لكنه ما انْفَكَّ فى عَجَلْ

يكفيه أن رأى الأملْ

وخادع الأَجَلْ !

*



٢ - أخاف الصمت

أخـــافُ مِنْ صَـــمْـــتِكَ الطّويلِ

ونـظـرةِ الشـــــــاردِ الـعـلـيـلِ

وبســـمـــةٍ فى الشــفــاهِ مَـــالَتْ

كــأنّهـا الشــمسُ فى الأصــيلِ

أخـافُ من صَـمْتِ مَـوْجِ بَحْـرِكْ

إذا عـــلا المَدُّ فـــوقَ بَـرِّكْ

فـــســوفَ يَسْـتكْشِفُ اللآلي

وســوف يَجْلو جـمـيعَ سِـرِّكْ

أخــافُ من ظُلْمــةِ السُّكونِ

وبَـهْـــمَـــةِ الشَّكِّ والظُّنونِ

فكلُّ مــا فــيكَ من خَـبَــايَا

يَشِي بِهِ خــائنُ العُــيــونِ

أخـــــافُ مـن هَـدْأةِ الرِّيـاحِ

ودافىءِ النَّسْمِ فى الصَّـــبـــاحِ

فـــإنَّ فى اللَّيْلِ عَـــاصِـــفَـــاتٍ

سَـــتَــــقْطِفُ الوَرْدَ والأقَـــاحى

أخـافُ من سِـحْـر صَـمْتِ دَرْبِكْ

ومـــا بِهِ منْ فُنونِ حُـــبِّكْ

فـــالصـــمتُ يُغْـــرى بأنْ أُبَادرْ

لأجْــتَلِى مـــا اخْــتَــبَـــا بِقَلْبِكْ

أخـــافُ إن مَـــرَّتْ السُّنُونُ

فَـــثَـــارَ بُركـــانُكَ الحَـــمِـــيمُ

ودَمَّـــــرَ الأرضَ والبَـــــرَايَـا

وأحْـــــــرَقَ الكُـلَّ فـى الأَتُـونِ

ورُمْـتَ بَـرْدًا بِبَــعْـضِ صَـــمْـتٍ

ولَمْ تَـجِـــدْ رَاحَـــــةَ السُّكونِ

أن تَنْشُـدَ الصَّـمتَ فى خُـمُـودٍ

كَـــــــأنَّـهُ رَاحَـــةُ المَـنُـــونِ !

*

٣ - ألوان الأصداء

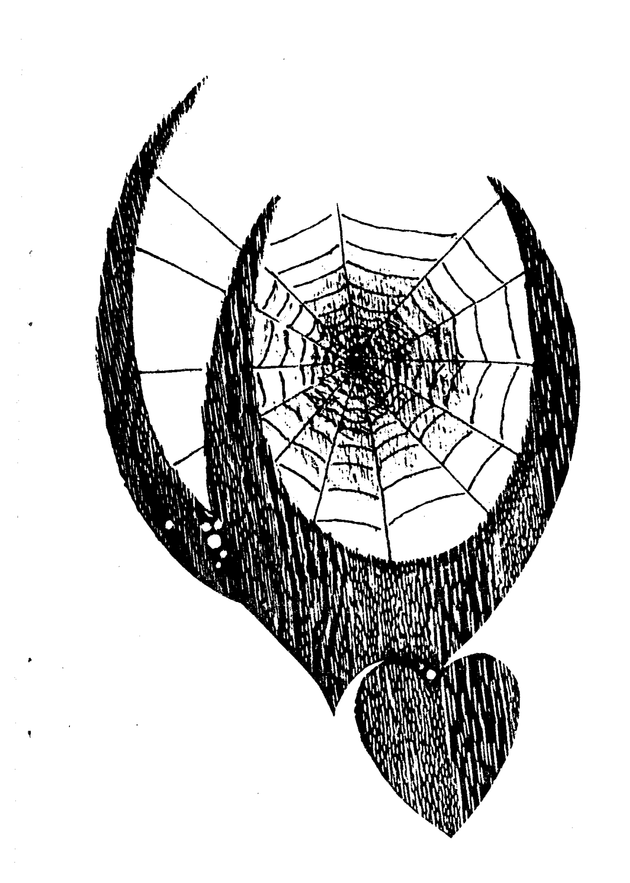
هَرَبَتْ

مثل ظباء المرعى تخشى سَهْمَ الرامى

والقلبُ الواجفُ تعلو دقاتُهْ

فوقَ حديثِ المارّة أو وقْع الأقدامِ

حتى خِلْتُ الشارعَ قلبًا يَنْبِضْ



والبحرُ خَبَبْ

والقافيةُ اخْتَلَّتْ

طَارَتْ

مثل يمامةِ نَخْلٍ تخشى الأحياءْ

لم تَلْبَثْ أن رَفَّتْ بجناحيها

وانْطَلَقتْ كالمارقِ فى الأجواءْ

والخضراءُ تردِّدُ خَفْقَ الرِّيشِ

بألوانِ الأصداءْ

ذائبةً فى آخرِ مرمى الطَّرْفْ

لكنَّ البحرَ خَبَبْ

والقافيةُ اعْتَلَّتْ

فَرَّتْ

وعلى شَفَتَيْها رجعُ كلامٍ

يتشكَّلُ فى بسمةِ خوفٍ من مجهولٍ

من طيفِ ظلامْ

يتراقصُ فى ضوءِ الشمسِ الغامرِ

مثل سوادِ غمامْ

فاضطرب البحر

والقافيةُ انْفَرَطَتْ

سَرَبَتْ

تَرَكَتْنَا فى جَوْفِ خَواءٍ يَفْغَرُ فَاهْ

يَفتحُ شِدْقَيْن ليبتلعَ الدُّنيا

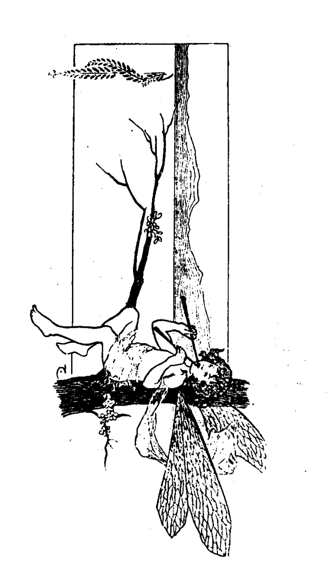
حتى دارَ الكونُ بِنَا وتَمَلْمَلْ

وارتعدَ السطحُ بنا وتَقَلْقَلْ

فالرُّوحُ السَّارِبَةُ نَجَتْ

والقافيةُ خَبَتْ !

*



٤ - رشفة الصمت

صَبَّتْ الصَّمْتَ رِضىً فى شَفَتى

كَـرَحـيقِ الخُلْد يُحْـيى الأمَـلاَ

فــأذابتْ لوعَـــةً فى لَوْعَـــتيِ

أسْكَرَتْنى فَنَســـيِتُ الأجَـــلاَ

الصِّبا يُطْربُ قلبَ المُسْتَهَامْ

مَرِحًا يغدو ويُمْسى مُشْفِقا

لم يَعُدْ يعرفُ معنًى للكلامْ

بعد أن أضحى السكونُ مَنْطِقا

لم يَعُدْ يعرفُ معنًى للزمانْ

بعد أن فَرَّ الزمانُ وَجَلاَ

ودَنَا المسكينُ للصَّمْتِ و دَانْ

واستكانَ قَائمًا مُرْتَحِلا

غَـــــرِّقـى فى نـاظِـرَيْكِ نَـظْرَتـى

وأذيبى الصَّمْتَ فى رَشْفَةِ صَمْتِى

*



٥ - حصن الصمت

تَحَصَّنَتْ من وَجَلٍ بِصَمْتِهَا

أَقَامَتْ القِلاَعَ حَوْلَهَا

وأَحْكَمَتْ إغلاقَ كُلِّ مَنْفَذٍ بها

وأَسْدَلَتْ على نَوَافِذِ القلاعِ سُدُلاَ

وعند مَدْخلِ الحِصْنِ المنيعِ شَقَّتْ خَنْدَقَا

تجرى مياهُ الصّيفِ فيه جَذَلاَ

لكنّه سرعانَ ما أَصْبَحَ جَدْوَلاَ

تنمو على شَطَّيْهِ أزهارٌ تفوحُ عَبَقَا

وتحملُ النسائمُ العبيرَ شارداً غَرْبًا وشَرْقَا

فَتَنْتَشى الرياضُ المُزْهِراتُ شَوْقَا

وتلتقى الطيورُ فيه عِشْقَا

وتخفُقُ القلوبُ فيه خَفْقَا

فباتَ حصنُ الصَّمْتِ فى عُزْلَتِهِ جزيرةً مهجورةْ

ولم يَعُدْ يدرى الوَرَى بــأنَّ بالقــصرِ أمــــيرةْ !

*

٦ - لا يطيق الصمت بلبل

حديقةُ الشتاءِ عاريةْ

تلتفُّ في أركانِها الغصونُ فى فَرَقْ

كالسابحاتِ يَخْشَيْنَ الغَرَقْ

وتستجيرُ من ظُلْم الظَّلامِ بالفَلَقْ

أوَّاهُ يا ربَّ الفَلَقْ

لقد تَجَمَّدَ الكونُ الفسيحُ وانْغَلَقْ

فلا المياهُ جاريةْ

ولا الرياحُ ساريةْ

وزَمْهَريرُ اللّيلِ رعبٌ انْطَبَقْ

يُجمّد الرحيقَ فى الجُذُوعْ

ويَخْنُقُ الفروعْ

حتى إذا هَبَّ النسيمُ أَطْبَقَتْ أصابِعُهْ

على زُهَيْراتٍ نَجَوْنَ من عَسْفِ الخريفْ

وأفنانٍ سَعِدْنَ فى الرَّبيعِ بالحَفِيفْ

وفى الصيفِ المديدِ بالزَّفِيفْ

وكادت الأصابعُ الأثيمةْ

أن تُسْكِتَ الأصواتَ فى حناجرِ الأطْيارْ

لكنّها لم تستطعْ فى هَجْمةِ الدَّمارْ

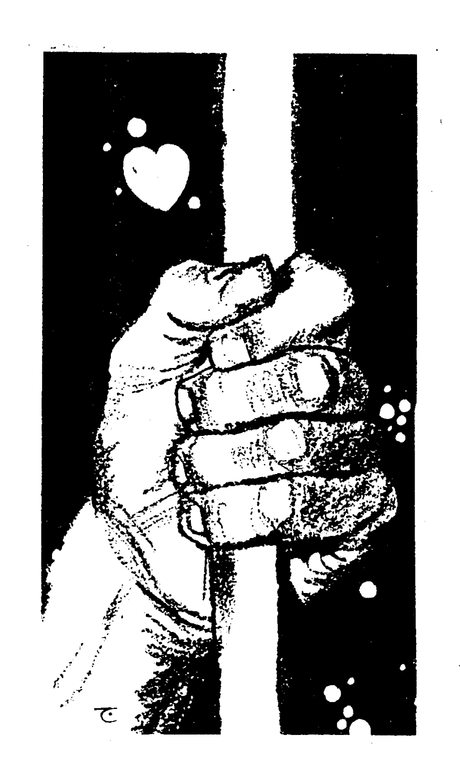
أن تَقْهَرَ الصوتَ الذى يَعْلو بآخرِ مَعْقِلْ

كأنّه سرُّ الحياةِ فى الألحان يَرْفُلْ

يعلو ويخفُتُ أو يغيبُ ثم يُقْبِلْ

وهل يُطيقُ الصَّمْتَ بُلْبُلْ ؟

*



٧ - الصمت بلا غاية

كانتْ صامتةً كسماءِ اللَّيلِ

إذا سَكَنَتْ فيها الأنفاسُ وغابَ البَدْرْ

فى أَحْلَكِ ساعاتٍ قَبْلَ الفَجْرْ

وإذا بِشِهابٍ يُومِضُ وَمْضَةْ

وبَرِيقٌ فى العَيْنَيْنِ شعاعٌ من فِضَّةْ

كالنَّجْم الثاقبْ

كالطّارقْ

كالنُّور الدَّافقْ

لكنّ الصمتَ يعودُ ليَكْسرَ سَهْمَ البَارقْ

ويَلُفَّ الكَوْنَ بِرَهْبِ الرَّاهِبْ

كانتْ صامتةً كصَفَاءِ اللَّيْلْ

لمحاتُ النُّور تُضىءُ لتَخْبُو فى البَهْمَةْ

كحُروفٍ لا تَقْوى أنْ تَتَشَكَّلَ فى كَلِمَةْ

لكنْ تنبضُ كالقلبِ الخَافِقِ

بِغَيَابَةِ جُبِّ الصَّمْتْ .

وتَنَاجَتْ أصداءُ الصَّمْتِ على أَطْرافِ الظُّلْمةْ

لحظةُ ميلادٍ أُخرى فى بَحْرِ الصَّمْت ؟

لحظةُ خَلْقٍ موعودةْ

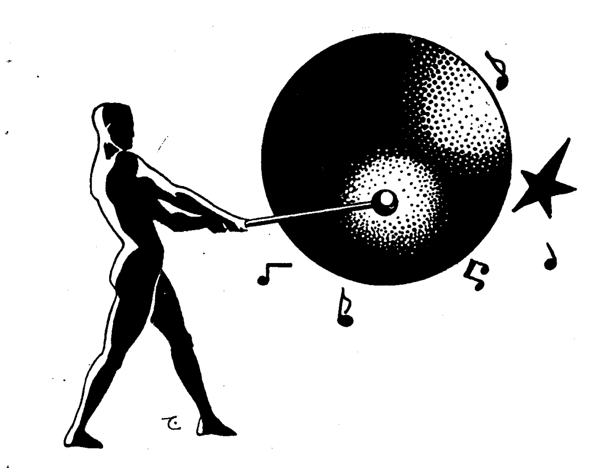
من ماءِ الأزَلِ الطَّامى ؟

فى البَدْءِ الكَلِمَةْ

واللَّحْظَةُ حَانَتْ

لكنَّ الصَّمتَ يطولُ بلا غَايَةْ

*



٨ - أطلال الصمت

عندَ بابِ الهِنْدِ فى دِلْهى دَغَلْ

وبِهِ شِبْهُ طَلَلْ

حولَه الأشجارُ تلتفُّ شِباكاً من ظُلَلْ

قلتُ فى نفسى هُنا حُطَّ الرِّحالْ

فهُنَا يَبْتَرِدُ الرَّاحِلُ من طُولِ الكَلاَلْ

ويُدَاوِى بعضَ ما يُضْنِيهِ من مَلَلْ !

وأَجَلْتُ الطَّرْفَ حَوْلى

فإذا الجُدْرانُ يعلوها كلامٌ ونُقُوشْ

لأُنَاسٍ ووُحُوشْ

وتَصَاوِيرَ رَهَبْ

وبِقَلبِ الطَّلَلِ الدَّارِسِ نُصْبْ

مثلُ رُمْحٍ بِسِنَانٍ من ذَهَبْ

وعَلَيْهِ كلماتٌ عَرَبِيَّةْ

تَتَلوَّى بزَوَايَا فَارِسيَّةْ

باسْمِ مَمْلُوكٍ مَلِكْ

هو عزُّ الدينِ أَيْبَكْ !

لَمْ تَكُنْ إلاّ نُقُوشاً

فوقَ بُنْيانٍ من القِرْمِيدِ صَامِتْ

أَنْطَقَتْ فى وَقْدَةِ الظُّهْرِ الزَّمَنْ

فَسَمِعْتُ الخَيْلَ تَرْكُضْ

ورأيتُ السَّيْفَ يَعْلو ثُم يَنْقَضُّ ويَفْتِكْ

باسْم أَيْبَكْ

أيُّ حلْمٍ ساق أَيْبَكْ

ليَجُوسْ

فى دِيَارِ الهِنْدِ أَبْنَاءِ كرِيشْنَا

والمَجُوسْ

أيُّ ركْبٍ عَبَرَ الأنْهَارَ

واجْتازَ الفَيَافِى والقِفَارْ

حَاملاً بَيْرَقَ مَجْدٍ

نَاشِدًا يَوْمَ فَخَارْ

مُنْذِرًا شَرَّ دَمَارْ !

لم تَكُنْ إلا نُقُوشًا صَامِتَاتْ

أَنْطَقَتْ صَمْتَ الرُّفَاتْ

فَسَمِعْتُ البُوقَ يَدْوى

ورَأَيْتُ الصَّارِمَ المَصْقُولَ يَهْوِى

وشَهِدْتُ الجُنْد تَرْوِى

يومَ نَصْرِك

أَنْتَ يا عِزُّ بن أَيْبَكْ !

ثُمَّ غَامَ الحلْمُ فى ظِلٍّ يَمُوجْ

وانْجلى النَّقْعُ المُثَارْ

فالتَفَتُّ للخَمِيلِ والمُرُوجْ

ذَاهِلاً

لم أَجِدْ لَحْنَ انْتِصارْ

لم أجد حُزْنَ انكسارْ

حين هَبَّتْ لَفْحَةٌ أُخرى

فعادَ الصَّمْتْ

ثُمَّ أضحى النَّقْشُ بَعْضاً

من رُفَاتِ الصَّمْت !

*

٩ - عادت الأصوات للصدى

كُنّا نَخُبُّ فى دَرْسِ الكَلاَمِ خَبًّا

نُؤَوِّلُ الوجوهَ والمعانىَ التى تَرُوغُ منّا مَنْطقًا وقَلْبَا

حتى خَبَا ضَوْءُ الأصيلِ ذائبًا فى الأُفْقِ ذَوْبا

وأغمضَ النَّهارُ أَجْفَانًا ثَقيلةْ

وأرسلَ المساءُ أشباحًا نَحيلةْ

تموجُ فى السحائبِ التى تشابَكَتْ

كَأَنَّهَا عِصَابَةٌ دكْناءُ فوقَ جَبْهَةِ السَّماءْ

تكادُ تَطْمِسُ الشَّفَقْ

وتَخْنُقُ الغَسَقْ

وكنتُ واقفًا لدى سبُّورتى

أنظرُ من شبَّاكِنَا

إلى السَّوادِ البَارِدِ الذى يُجَلِّلُ الأُفُقْ

ومِلْءُ أُذْنَيَّ صِياحُ طُلاَّبِ المَسَاءْ

أمشاجُ ضِحْكٍ وصياحٍ ونَزَقْ

وشَقْشقَاتٍ خَافِتاتٍ فى ذَوائبِ النَّخيلْ

مَالَتْ مع الأَنْسَامِ حيثُ تَميلْ

وخَلَّفَتْنى واقفًا لَدَى السُّبُّورةْ

أَخُطُّ ألفاظًا كأنّها المعابدُ المهجورةْ

جُدْرانُها تَضِــجُّ بالأَصْداءْ

وفَوْقَها آثارُ فَنّانٍ قديمْ

مضى وخَلَّفَ الهَبَاءْ !

وعندما استَدَرْتُ من سُبُّورتى

بقلبِ من يَرُوعُه جلالُ آيةِ الغُروبْ

وَجَدْتُها قُبَالَتى

على جَبِينِها عِصَابَةٌ

سوداءُ مثلُ عُقْدَةِ السّحابْ

تُتَابِعُ الحديثَ فى صَمْتٍ رزينْ

وقد تَدَثَّرتْ مثل السَّماءْ

بكلِّ ما يُخْفى ولا يُبينْ

كأنّها بِدِرْعِهَا اتَّقَتْ

أَسِنَّةَ الرِّماحِ فى أيدى غُزاةِ اللَّيْل أو تَحَصَّنَتْ

ضدَّ النِّصَالِ المُشْرَعَاتِ باليمينْ !

وفى لُحَيْظَةٍ كأنّها سَنَا بَرْقٍ وَمَضْ

تَبَسَّمَتْ

وفى لُحَيْظَةٍ تَكَسَّرَتْ

نِصَالُ ظُلْمَةِ الغُروبِ عندَ حافَّةِ الثَّنَايَا

وخِلْتُ أننى أرى الشَّظايا

وأنّ نوراً غامراً يفيضُ فى الحنايا

أو قُلْ كأنَّ البسمةَ النَّدِيَّةْ

فَكَّتْ عِقَالَ العُقْدَةِ القَصيَّةْ

وأَطْلَقَتْ من القُيودِ أَلْفَ جِنِّيٍّ وجِنِّيَّةْ

تَلاَعَبَتْ فى جَفْنَىْ الصَّبِيَّةْ

ورَفْرَفَتْ كأنّها فراشاتٌ خَفِيَّةْ

ألوانُها بَهِيَّةْ

غَزَّالَةٌ نَسَّاجَةٌ فَتَّانَةٌ فَتِيَّةْ

تُقيمُ فى الهواء سلَّمًا مِن الخُيوطِ العَسْجَدِيَّةْ

يرومُ أسبابَ السَّماءِ صَاعِدًا بلا كَلاَلْ

ويُفْعِمُ المكانَ أَلْحانًا شَجِيَّةْ

أو قُلْ نِثَاراً من أَرِيجِ بَسْمَةِ الدَّلاَل

وهى تأتى بالصباحِ للبَرِيَّةْ !

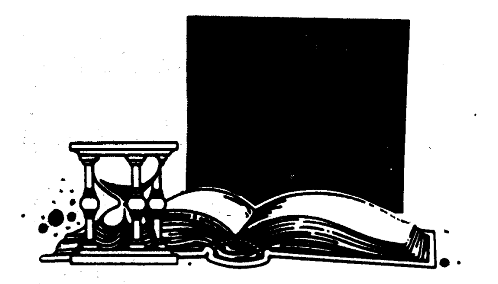
كيفَ ابْتَسَمْتِ يا صَبِيَّةْ

فعادَتْ الأصواتُ للصَّدَى

وأصبحَ الذى انتهى كأنّه ابتدَا

واخْتَلَطَ الزَّمَانْ !

*



١٠ - العبير الخائن

أقامَ الربيعُ سـيـاجًـا حَـصِـينًا

لِيـحـجُبَ أشـجـارَهُ المُثْـمِـرَاتْ

وأخْـفى عن العَـيْنِ نَوْرَ الغُصُـونْ

وكُـلَّ براعِــمِـــهـــا المُزْهِـرَاتْ

وألقى السَّـــوادَ على كُلِّ جَنْبٍ

ليَحْبِسَ ألوانَهُ الزَّاهياتْ

وكَمَّمَ أفواهَ كُلِّ الطُّيورْ

وكُلِّ جَداوِلِه الجارياتْ

وحَرَّمَ كُلَّ تَنَاجٍ خَفِىٍّ

رقيقِ الحَوَاشِيَ فى الأُمْسِياتْ

وقال لأحْفَظْ هُنا جَنَّتِى

وأنْجو بها من هوى العَادِيَاتْ

فإنى لأخْشَى عيونَ الخَريفِ

وَبَطْشَ الشــتــاءِ وبَرْدَ المَــاتْ

أخـافُ السّـمـاءَ ومـاءَ السّـمـاءِ

وعُنْفَ عَـوَاصِـفِـهـا الظَّالِماتْ

ولكنَّ رَوْحًــا رقــيــقًــا سَــرَى

كــأنّ به الهَـمْسَ أو تَمْـتَـمَـاتْ

فــأيقظَ كلَّ عــيــونِ الرَّوابي

ونَبَّـــهَ آذانَهـــا النَّائمـــاتْ

وحَــرَّكَ مُــزْنًا على مَــرْكَبِ الرِّيح

وفَـتَّحَ أجْـفـانَـهـا المُسْـبَـلاَتْ

أَثَارَ الشُّـجُـونَ بهـا فـانْثَنَتْ

تُزَمْـجِـرُ بالرَّعْـدِ فى المُرْسَـلاَتْ

وفَـاحَ العَـبـيـرُ فَنَادَى الطُّيـور

فَـرَفَّتْ بأَجْنِحَـةٍ ضـارباتْ

وهَبَّتْ نسـائمُ من كُلِّ صَـوْبٍ

تريدُ الشَّـذا وتَفُضُّ السُّـبـاتْ

وعِنْدَ الهَزيعِ الأخيرِ اسْتَحَالتْ

رِيَاحًا عَـوَاصِـفُـهَا جَـائِحَـاتْ

وأَفْـــرَغَـتْ المُـــزْنُ أَمْـطَـارَهَـا

شَـــآبيبَ غَــامِـرةً جَـامِـحَـاتْ

فَـرَوَّتْ عُـروقَ الزّهـور الصَّــوادِي

وأحْـيَتْ حـيـاةً بهـا تَنْتَــشِـرْ

وأَشْـرَقَتْ الأرضُ عندَ الصَّـبـاحِ

فـأَلْفَى الربيعُ السِّـيـاجَ انْكَسَـرْ

« تُراني استُبِحْتُ تُراني اغْتُصِبْتُ

« وهَلْ خانَنى بعضُ هذا العَبيرْ ؟

« ومَنْ ذا تُراه وَشَى بالربيعْ ؟ »

تساءلَ فى لَهْجَةِ المُسْتَجيرْ

ولكنّ صوتًا رخيمًا تَرَدَّدَ

فى الكونِ مثل الغِنَاءْ

بغير الشِّتا لا يكونُ الربيعُ

وَلاَ صيفَ فى الأرضِ دونَ الشِّتاء!

*

١١ - ملاح قديم

شَاقَهَا ما خَلَّفَ العُمْر بِفَوْدِى من ذُؤَابَاتِ المَشِيبْ

وغُضُونٍ زاخراتٍ بِأَقَاصِيصِ المَغِيبْ

وأَهَازيجِ الغُروبِ فى التِّلالِ والوِهَادْ

وابتساماتِ الوميضِ الخافقِ الوَهَّاجِ من بَيْن الرَّمَادْ

شَاقَها ما لاَح من عِشْقٍ مُقيمْ

لخيالات تَرَاءَتْ مثل أحلام الرُّقادْ

لسُوَيْعات غَدَتْ مثلَ السَّدِيمْ

ببِلادٍ أصْبَحَتْ غَيْرَ بلادْ

ولِواحَاتٍ غَدَتْ شَطَّ النَّعيمْ

وغَرامٍ هائمٍ فى كُلِّ وادْ

شاقها ما لاَحَ فى نَجْوى العُيُونْ

من تَبَارِيحِ الشُّجُونْ

أو أَحَاديثِ الفُتُونْ

فَغَدَتْ تسألُنى ماذا أكون !

إنَّنى يا بِنْتَ هذا العَصْرِ مَلاَّحٌ قَديمْ

قَتَلَ القَادوسَ ذَاقَ الوَحْشَةَ الكُبرى على بَحْر السُّكونْ

كادَ من لَذْعِ الظَمَا أن يُنْكِرَ الرِّيحَ الرُّخَاءْ

أو يَطْلُبَ الأنواءْ !

ظامىءٌ والماءُ يَغْشى كلَّ شىءٍ حولَه حتى السَّماءْ !

حَلْقُهُ جَفَّ



والزَّمَانُ قَدْ وَقَفْ

والمنايا أمنياتٌ لا يُجِبْنَ من بِعَقْلِهِ تَلَفْ !

كان يا بِنْتى وَحيدًا يَرْقُبُ الماءَ المَريرْ

يَتَلَظَّى فى الهَجيرْ

يَتَلَوَّى فى ليالى الزَّمْهَريرْ

فى انتظارِ رَاحَةِ المَنُونْ !

هل قَضَى فى غَيْهَبِ النِّسْيانِ فاسْتَحَالَ رُوحًا عُلْوِيَّةْ

لَيْسَ يَدْرى يا صَبِيَّةْ

إذْ أفاقَ ذاتَ يومٍ لِلُحونٍ قُدْسيَّةْ

ورأى وَهْجَ جَمَالِ الأبَديَّةْ

فى خَبَايَا الرُّوحِ فى نَبْضِ الحَيَاةِ الأزَليَّةْ

ورأى الكونَ بديعًا فى كِسَاءِ كُلِّ حَيَّةْ

فى شَذَا الوَرْدِ وفى لَذْعَةِ أشْواكٍ عَتيَّةْ

ورأى اللَّذَّةَ والإيلامَ فى كُلِّ ثَنيَّةْ

فَتَسَامَى وتَهَاوَىَ هَاطِلاً من فوقِ صَخْرْ

ومَضَى كاللَّيْلِ من فَجْرٍ لفَجْرْ

سَائِرًا فى دَوْرَةِ الأفْلاكِ سَيْرَ الدَّهْرْ

يَنْشُدُ الخُلْدَ بواحاتٍ بِصَدْرِ العُمْرْ

إنه يَحْيَا وَحيدًا يا صَبِيَّةْ

ويروضُ النَّفْسَ بالأحلامِ والصُّوَرِ الخَفِيَّةْ

ولهُ فى كُلِّ فِكْرٍ عِشْقُ سُرِّيَّةْ

لا يُبالى إن مَضَى أو بَقِيَتْ مِنْه بَقِيَّةْ !

*



١٢ - حورية أطلس

قال الساحرُ للماردِ

أنتَ حبيسُ جبالِ الأَطْلَسْ

وستَبْقَى قَيْدَ الحَبْسْ

حتّى تأتى حُورِيَّةْ

حارقةً كشُعَاعِ الشَّمْسْ

تعشقُ أنغامَ الحُرِّيَّةْ

وبمَنْطقِها مَسّ

فَتَمُدُّ إليكَ حِبَالَ الهَمْسْ

حتّى تَنْسى أصداءَ الصَّمْت

وتعودَ إلى دُنيا الإنْسْ

وتَقَلَّبَ ذاك الماردُ فى المَحْبِسْ

وتَخَبَّطَ فى قاعٍ كالرَّمْسْ

ثُمّ تَسلّق جُدرانَ الصَّخْرِ الأمْلَسْ

فَوَقَعْ

لَنْ يُصْبِحَ صَوْتًا أَخْرَسْ

فى جَوْفِ جَبَلْ

فتعلَّقَ بالغُصْنِ المُتَدلّى فى جَنْبِ الهُوَّةْ

وتَحَسَّسَ شَقًّا قد يُفْضى للنُّورْ

فانْزَلَقَ وعَادْ

يَتَلَمَّسُ مَسْرَبَ حِسّ

يَتَحَسَّسُ يَتَلَمَّسُ

فَإِذا انْسَدَّتْ كُلُّ الثُّغُراتِ هَمَدْ

وخَمَدْ

لكنْ لا يأتيهِ اليَأْس

نَسِيَ الماردُ أن السَّاحِرَ قالْ

إنّ الحوريّةَ قد تأتى فى صورةِ نَبْضِ الأمْس

فى أَعْمَاقِ النَّفْس

وستسمعُ من أصداءِ النَّبْضِ شَتَاتًا عِنْد السَّفْح

فإذا اخْتَلَطَتْ تلك الدَّقَّاتُ على سَمْعِكْ

فاعْرَفْ أن الحوريّة تَأْبَى قَيْدَ النَّظْم

وتُبَدِّلُ مجدولَ الشِّعر بشَلاَّلِ الشَّعر

وَتْنثُر حبَّاتِ الحِكْمَةِ نَثْرًا

وستأتى فى الغُدْوَةِ بلُحُونٍ

تَرْبِطُ ما فَاتَ بما هُوَ آتْ

وستعشقُ فى فَمِها نَغَمَ الفَنّ

وسَيَسْمَعُ كلُّ الناسِ اللَّحْنْ

وسَيَهْوَاهَا رَهْطُ الجِنّ !

بل نَسِيَ الماردُ أنَّ الساحرَ حَذَّرهُ من ذاك البحرْ

فقيودُ النَّظم هى القَنَواتُ المحفورةُ فى الوِجْدان

يَسْلُكُها من يَبْغي شَطَّ أمَانْ

من يَخْشى شَلاَّل الشَّعْر وتيهَ الألْحانْ

من يَأْنَسُ للأَوْزانْ

أمّا من يركبُ موجَ الشّعر الآخرْ

فلسوفَ تُناديه الحُوريّة من أعْماق الماءْ

ويغوصُ فلا يَغْرَقُ أو يَنْجو

ويغيبُ بِظُلْمةِ كهفٍ ينسجُهُ المَرْجَانْ

وشِعابٍ لا يعرفُها الإنسانْ

فيظلُّ رهينَ المَحْبِسْ

كالماردِ فى قاع الأطْلس

نسى الماردُ تحذيرَ الساحرْ

وتَقَلَّبَ فى مَحْبِسِهِ حتى بَزَغَ الفَجْرْ

قَبَسٌ من ضوءٍ يَتَفجَّرُ فى كَلِماتٍ منثورةْ

ويُحيلُ الجَبَلَ العاتى بَحْرًا

لا يَغْرَقُ فيه ولا يَنْجو

والحُرِّيةُ بسمةُ حُوريَّةْ

يَنْسَدِلُ الشَّلالُ على كَتِفَيْها ويقولُ الشِّعْر

والحُوريَّةُ حَيَّةْ

تَتَلَوَّى كالأشْواقْ

والسُّمِّ الدَّفَّاقْ

فى النَّابِ المُشْرَعِ تِرْيَاقْ

واللَّدْغَةُ لحظةُ صِدْقْ

زَلْزَلَ كهفَ الجبل وهَزَّ الأركانْ

فَتَدَفَّق فى أَعْماقِ المارِدِ نبعُ كِيانْ

وانتصبَ مَهِيبًا صُلْبَ البُنْيانْ

فالحُورِيَّةُ ليستْ من أبناءِ الجَانْ

وهو بِرَغْمِ السَّاحِرِ إِنْسَانْ !

*

الفهرس

الصفحة

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٧٠٤٢ / ٢٠٠١

I.S.B.N 977 - 01 - 7205 - 7